

وقفات مع النَّفس أول العام

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فاتَّقوا الله - عباد الله - حقَّ التَّقوى، فالتَّقوى أربح المكاسب، وأجزل المواهب.

أيها المسلمون:

إنَّ تعاقب الشُّهور والأعوام على العباد من نعم الله الغزار قال سبحانه: ﴿وَسَحَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَحَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۗ﴾ (٣٣) وَعَاتَنَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٣، ٣٤]، ويقول عليه الصَّلَاة والسَّلَام: «نعمتان مغبون فيهما كثير من النَّاس، الصُّحَّة والفراغ» (رواه البخاري)، وقد أقسم الله في آيات عديدة من كتابه بأجزاء من الوقت، من الليل والنهار، والفجر والعصر والضُّحى، ونحن قد ودَّعنا عاماً حافلاً من أعمارنا، واستودعنا فيه أعمالنا، تنشر يوم الحشر أماننا، فما أسرع ما مضى وانقضى، وما أعظم ما حوى، كم من حبيبٍ فيه فارقتنا؟ وكم من بلاء فيه واجهنا؟ وكم سيئات فيه اجترحنا؟

والليالي والأيام خزائن للأعمال، ومراحل للأعمار، تُبلي الجديد، وتقرب البعيد، أيامَ تمر وأعوام تكرر، وأجيال تتعاقب على درب الآخرة، فهذا مقبل وذاك مدبر، وهذا صحيح وآخر سقيم، والكلُّ إلى الله يسير، يقول عليه الصَّلَاة والسَّلَام: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسِهِ، فَمَعْتَقُهَا، أَوْ مَوْبِقُهَا» (رواه مسلم)، في الدَّهْر آلام تنقلب أفراحاً، وأفراحٌ تنقلب أتراحاً، أيام تَمُرُّ على أصحابها كالأعوام، وأعوام تَمُرُّ على أصحابها كالأيام، واللييب من اتخذ في ذلك عبرةً ومُدَّكراً، قال سبحانه: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [التور: ٤٤].

والعام وَلَّى بما أودع فيه العباد من أفعال وستعرض عليهم أعمالهم ﴿يُبَيِّنُ الْإِنسَانَ يَوْمَ قَدَمِهِ مَا قَدَّمَ وَآخَرَ﴾ [القيامة: ١٣]، فانظر في صحائف أيامك التي خلت، ماذا ادخرت فيها لآخرتك؟ واخُل بنفسك وحاسبها حساب الشَّحيح، يقول ميمون بن مهران - رحمه الله -: «لا يكون العبد تقياً حتى يكون مع نفسه، أشد من الشريك مع شريكه».

واعلم أن مضي الليل والنهار يباعدان من الدُّنيا، ويقربان من الآخرة، فطوبى لعبد انتفع بعمره، فاستقبل عامه الجديد بمحاسبة نفسه على ما مضى، والرَّشيد من وقف مع نفسه وقفة حساب وعتاب، يصحح مسيرتها ويتدارك زلتها، يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن كان محموداً أمضاه واستبق بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذموماً استدركه وانتهى عن مثله في المستقبل، لأنه مسافر سافراً لا يعود، يقول أبو حاتم ابن حبان - رحمه الله -: «أفضل ذوي العقول منزلة أدمهم لنفسه محاسبة».

وإن غياب محاسبة النَّفْس نذيرٌ غرق العبد في هواه، وما أردى الكفار في لجاج العمى إلا ظنَّهم أنهم يمرحون كما يشتهون بلا رقيب، ويفرحون بما يهوون بلا حسيب، قال سبحانه عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً﴾ [النِّبَا: ٢٧].

والاطلاع على عيب النَّفْس ونقائصها ومثالبها يلجمها عن الغيِّ،

ومعرفة العبد نفسه وأن مآله إلى القبر يورثه تذلاً وعبودية لله، فلا يعجب بعمله مهما عظم، ولا يحتقر ذنباً مهما صغر، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: «لا يتفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت النَّاس في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً».

وإذا جالست النَّاس فكن واعظاً لقلبك، فالخلق يراقبون ظاهرهم واليه يراقب باطنك، ومن صح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زين الله ظاهره بالصلاح والفلاح.

والتعرف على حقِّ الله وعظيم فضله ومَنِّه، وتذكر كثرة نعمه وآلائه يطأطيء الرأس للجبار جلَّ وعلا، ويدرك المرء معه تقصيره على شكر النعم، وأنه لا نجاة إلا بالرجوع إليه، وأن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر، يقول ابن القيم - رحمه الله -: «بداية المحاسبة أن تقايس بين نعمته عزَّ وجلَّ وجناتك، فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعطب»، وتفقَّد عيوب النَّفس يزكيها ويطهرها، قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، يقول مالك بن دينار - رحمه الله -: «رحم الله عبداً قال لنفسه: ألسن صاحبة كذا؟ ألسن صاحبة كذا؟ ثم زمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب ربها فكان لها قائداً».

وإنَّ أضرَّ ما على المكلف، إهمال النَّفس وترك محاسبتها، والاسترسال خلف شهواتها حتى تهلك، وهذا حال أهل الغرور الذين لا يحترزون من الوقوع في المعاصي، ويتكلمون على العفو، وإذا فعلوا ذلك سهلت عليهم موقعة الذنوب وصغر في أعينهم وبالها، والله يقول: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمُ﴾ [الانفطار: ٦]، يقول الحسن البصري - رحمه الله -: «لا يليق بالمؤمن إلا أن يعاتب نفسه فيقول لها: ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ وأما الفاجر فيمضي قدماً لا يعاتب نفسه»، والمؤمن قوام على نفسه يحاسبها قال جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا

مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وشق الحساب على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

فتوق الوقوع في الزلة فترك الذنب أيسر من طلب التوبة، وأنبها على التتقصير في الطاعات، فالأيام لك لا تدوم، ولا تعلم متى تكون عن الدنيا راحلاً؟ وخاطب نفسك ماذا قدمت في عام أدبر؟ وماذا أعددت لعام أقبل؟ يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا».

وعاهد نفسك في مطلع هذا العام على المحافظة على الصلوات الخمس في المساجد جماعة مع المسلمين، والتزود من العلم النافع والسعي في نشره وتعليمه، وحفظ اللسان عن المحرمات من الكذب والغيبة والبذاءة والفحش، وعليك بالورع في المطاعم والمشارب واجتناب ما لا يحل، واحرص على برِّ الوالدين وصلة الأرحام وبذل المعروف للقريب والبعيد، وتطهير القلب من الحسد والعداوة والبغضاء، واحذر من الوقوع في أعراض المسلمين، واجتهد بالقيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأداء حقوق الأولاد والزوجة على الوجه الأكمل، وغيض البصر عن النظر إلى المحرمات في الطرقات أو الفضائيات، وما أجمل أن يكون هذا العام انطلاقة تغير في المجتمعات، ومحافظة النساء على حجابهن والتزامهن بالستر والحياء، امتثالاً لأمر الله واتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، واقتفاء بسير الصحابيَّات والصالحات.

فالليل والنهار يباعدان عن الدنيا ويقربان من الآخرة، فطوبى لعبد انتفع بعمره فاستقبل عامه الجديد بمحاسبة نفسه على ما مضى، فكل يوم تغرب فيه شمسُه يندرك بنقصان عمره، والعاقل من اتعظ بأمسه واجتهد في يومه واستعد لغده، فخذ الأهبة لأزف النقلة، وأعد الزاد لقرب

الرَّحْلَةَ، وخير الزَّاد ما صحبه التَّقْوَى، وأعلى النَّاس عند الله منزلة أخوفهم منه.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم . . .

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشُّكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه.

أما بعد: أيها المسلمون:

فاتحة شهور العام، شهر الله المُحَرَّم، من أعظم الشُّهور عند الله، عظيم المكانة، قديم الحرمة، رأس العام، من أشهر الله الحرام، فيه نصر الله موسى وقومه على فرعون وملاه، ومن فضائله: كثرة صيام أيامه، يقول النَّبي ﷺ: «أفضل الصَّيام بعد رمضان شهر الله المُحَرَّم، وأفضل الصَّلَاة بعد الفريضة صلاة الليل» (راوه مسلم).

وأفضل أيام هذا الشُّهر يوم عاشوراء، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «قدم النَّبي ﷺ المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» قالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه، فقال: «نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه» (متفق عليه)، ولمسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»، وقد عزم على أن يصوم يوماً قبله مخالفة لأهل الكتاب فقال: «لئن بقيت إلى قابل لأصومنَّ التاسع»، فيستحب للمسلمين أن يصوموا يوم العاشر اقتداء بسنة المصطفى ﷺ،

وطلباً لثواب الله، وأن يصوموا يوماً قبله أو يوماً بعده مخالفة لليهود، وعملاً بما استقرت عليه السنة وذلك من شكر الله عزَّ وجلَّ على نعمه، واستفتاح هذا العام بعمل من أفضل الأعمال الصالحة التي يرجى فيها ثواب الله سبحانه وتعالى.

ثم اعلموا أن الله أمركم بالصَّلاة والسَّلام على نبيه . . .